مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 983 – 994
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

البعد الروحي لشعيرة الصيام والأعياد الدينية في مجابهة السياسة الاستعمارية 1954-1919

The spiritual dimension of fasting and religious occasions in the face of colonial politics through the réformiste press 1954 -1919

الطاهر إبرير* د/ بنادي محمد الطاهر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة محمد خيضر بسكرة
مخبر الانتماء: التغير الاجتماعي والعلاقات العامة - الجزائر
taharbenadi07@gmail.com ibrirteher@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/05 تاريخ القبول: 2020/11/21

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى معالجة تأثير المناسبات الدينية الإسلامية في الحفاظ على مقومات الهوية الوطني، ومجابهة السياسة الاستعمارية التي أدركت انه لا يمكن أن يكون استقرار سياسي في الجزائر، إلا بإجراء تحول ديني إذا لم يكن إلى المسيحية فليكن إلى الانحلال والتميع، فالمؤسسات الدينية قد شكلت عائقا أمام مطامع الإدارة الاستيطانية فشنت عليها حربا صليبية إلى جانب حربها الاستعمارية، وحولت معظم المساجد إلى كنائس وثكنات عسكرية، وجعلت من المناسبات الدينية الإسلامية أيام عادية.
لقد شكت الحياة الروحية والدينية بالفترة الاستعمارية للجزائريين منعرجا حاسما في الحفاظ على هويتهم وتماسكهم وعلى رأس تلك المقومات مسألة الأعياد والمناسبات الدينية الإسلامية.
كلمات مفتاحية: شعيرة الصيام والأعياد الدينية الإسلامية؛ السياسة الاستعمارية؛ الصحافة الإصلاحية.

Abstract:
The Islamic religion is the main pillar in the life of Algerian society, therefore, French colonialism made it the main objective and subdued it to all kinds of distortion, and this Wrapping around the Islamic religion may be an obstacle to the ambitions of the colonial administration, for that France, along with its colonial war, launched a Crusade, turning most of the mosques into churches, military barracks and sanatoriums, And Religious holidays to normal days.
The religious life of the colonial period of Algerians has been a strong bond in maintaining their identity and history, because colonialism tried to undermine the factors of their cohesion, when he failed to realize his colonial project he tried to transform their cultural and spiritual destination.
Keywords: Feasts And events Religious؛ Politics Colonialism؛ the movement Reformist.

* المؤلف المرسل.

مقدّمة:

لقد عملت الإدارة الاستعمارية على محاربة كل عوامل الوحدة والترابط بين الجزائريين، زيادة على هذا راقبت التعليم الديني والزوايا وحددت الشروط لإنشاء المدارس القرآنية وأغلقت الكثير منها، مما أدى إلى انتشار الجهل والأمية بينهم وانهيار مستوى التعليم واللغة العربية، كما راقبت رجال الدين والعلماء والفقهاء واضطرتهم للهجرة خارج البلاد، وفرضت رقابة على مناسك الحج وحددته برخصة، ولم تكتف بهذا فكونت طبقة رسمية من رجال الدين الموالين لها، وأوكلت إليهم إدارة المساجد والمرافق الدينية والأوقاف وألزمتهم بالتعاون مع إدارات الشرطة والجيش الاستعماري ضد إخوانهم من الجزائريين، كما فعلت عملية التنصير بكل وسائلها خاصة في المناطق المعزولة، ونشرت البدع والخرافات البالية بين الجزائريين من خلال تشجيع الزوايا المنحرفة وتحجيم دور الزوايا الأصيلة التي رفضت التعاون مع الاستعمار.

من هذا الطرح نورد الإشكالية الآتية:

- إلى أي مدى قد ساهم البعد الروحي لشعيرة الصيام والأعياد الدينية الإسلامية في مجابهة السياسة الاستعمارية من خلال الصحافة الإصلاحية؟

كما واصلت فرنسا إعمالها القمعية بإصدارها عدة قوانين ومراسيم منها قرار 25جوان 1911القاضيبتأسيس اللجنة الوزارية للشؤون الإسلامية، وأوعزت إلى رجال الدين الموالين لها بتكوين لجان دينية لتحل محل اللجان الرافضة لمسايرة الطرح الاستعماري في الجزائر من خلال استحداث لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية الكبيرة سنة 1941، وألحقت الأعياد والمناسبات الدينية الإسلامية بلجنة تنظيم شؤون الحج لتسهيل عملية تسييرها وطمس معالم خصوصيتها الإسلامية.

1- رمضان ومكانته الاجتماعية والدينية في ظل السياسة الاستعمارية:

1-1- الاهتمام برمضان وتوحيد المناسبات الدينية: يعد ترقب الهلال ورؤيته في نهاية شهر شعبان وبداية رمضان من الأمور التي يهتم لها الشعب الجزائري، وهي من بوادر الخير لمكانته الاجتماعية والدينية في قلوب الناس، ورؤيته تعد إعلانا عن بداية مناسبة اجتماعية عظيمة للأمة الإسلامية قاطبة والجزائر بصفة خاصة، لهذا خصصت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مكاتب تتبع قدوم هذا الشهر الفضيل رغم قلة الوسائل وصعوبة الاتصال والتواصل،ومع ذلك فقد استطاعت المحافظة على القيمة الروحية لهذا الشهر الفضيل وتحقيق وحدة الأمة الجزائرية بتوحيد بداية الصيام ويوم العيد، وجاء في هذا الصدد بالعدد الخامس في جريدة الصراط السوي بتاريخ 25 ديسمبر 1933 مقالا يفسر كيفية تتبع ثبوت الرؤية ما نصه «وقد كان مكتب رئاسة الجمعية قد خاطب رؤساء شعبها بالقطر كله، في العناية بالرؤية كما نشرناه بعدد مضى من هذه الجريدة»[1].

كما عاتب صاحب المقال جريدة النجاح على عدم ذكر فضل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الاعتناء بهلال رمضان، من خلال الأخبار التي نشرتها وادعت أن الفضل يعود إليها في إعلان قدوم شهر الصيام وتكوين لجنة خاصة لهذا الغرض، والتي أنكر وجودها وبين الكيفية التي يتم بها الإعلان عن بداية الصيام، فبمجرد رؤيته من طرف العُدول يتم إبلاغ الشُعب التابعة للجمعية والتي تبقى أبوابها مفتوحة على مدار الساعة وتسخر لذلك خطوط هاتفية، وبعد الإبلاغ عن رأيت الهلال تُعرض على القاضي الشرعي القريب من المكان، الذي يتحرى بدوره في الأمر عن طبيعة الأشخاص الذين أعلنوا رؤيته وأخلاقهم، وبعد أن يتم ذلك تحرر وثيقة الثبوت، وترسل إلى مقر رئاسة الجمعية، وبعدها تعلن هذه الأخيرة عن بداية

شهر رمضان بكل الوسائل المتاحة من جرائد وخطوط هاتفية وتسخير المداحين في الأسواق لإعلان هذا الخبر، كما تُنصب محاكم شرعية بكامل القطر الوطني يرأسها في العاصمة القاضي محمد بن الساسي حسب صاحب المقال [2].

يتخلل في الكثير من الأحيان اجتماع الناس بالعلماء في مثل هذه المناسبات إلقاء دروس الوعظ والإرشاد لتعميم الفائدة على الحضور، في انتظار إعلان بداية الصيام وتحرير وثيقة ثبوت الرؤية حسب المذهب المالكي، الذي يحدد ثلاث مواطن لدخول شهر رمضان، الشرط الأول رؤية العدول لهلال رمضان، والثاني هو رؤية الجماعة المستفيضة أو بكمال شهر شعبان، إن غمت الرؤية لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر« إذا رأيتموه فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له» وفي رواية أخرى «فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»، والتقدير بمعنى الإتمام[3].

لقد كانت مجهودات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تتميز بالشمولية وبعدها المغاربي في توحيد أيام المناسبات الدينية، وبصفة خاصة مسألة بداية الصيام ورؤية الهلال، وتوحيد إيام الأعياد ويوم عرفة بين مختلف أقطار المغرب العربي، وشكلت كتابات الجرائد الإصلاحية ابرز الركائز في هذا الصدد من خلال دعوتها كل المهتمين بهذا الجانب والمواطنين بان يترقبوا هلال رمضان،بعد الدعاية الاستعمارية التي كانت تروج لخلق الأقليات العرقية في الجزائر من خلال تركيزها على المسائل الدينية والاختلافات القائمة فيها بين مختلف المناطق عبر الوطن، إذ كتبت في سنة 1928 بعض الصحف التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين عدة مقالات تحث فيها كل المغاربة على أن يقطعوا الشك والاختلاف في ثبوت الرؤية، ونشرت معلومات فلكية تحدد نطاق بداية شهر شعبان،ففي تونس قد حددته يوم الاثنين 30 رجب 1346هـ الموافق 23 جانفي 1928م وموقع طلوع الهلال بعد الغروب وتوقيته لتسهيل عملية الرصد والرؤية، وفي الجزائر وفاس كان الاختلاف في موقع طلوع الهلال والتوقيت الذي تكون فيه الرؤية متاحة، والملاحظ أن المعلومات الفلكية التي نشرتها جريدة الشهاب في العدد الثالث الخميس 26 رجب 1346هـ الموافق 19 جانفي 1928 كان الهدف منها توحيد يوم الصيام وضرب الدعاية الاستعمارية، التي كانت تروج إلى أن الاختلافات القائمة راجعة إلى التباين في التوجهات الفكرية والسياسية والدينية بين مختلف شعوب المغرب العربي[4].

في الواقع كانت الدعوة لترقب شهر شعبان في كامل الأقطار المغاربية تهدف إلى إثباته شرعا، وهلال شعبان لم يكن مقصودا لذاته وإنما هو وسيلة للصيام بإتمام العدة الخاصة بهذا الشهر أو ثبوت الرؤية، وعليه يمكن تجنب الاختلاف بين القضاة الشرعيون والأئمة والمدرسين في إثبات يوم الصيام، ويرجع هذا الحراك الإصلاحي إلى أهمية المناسبة ومكانتها الاجتماعية في نفوس المسلمين[5]، كما أن الأقطار الإسلامية كلها دار واحدة فحيثما ثبتت الرؤية قامت بذلك الحجة على الجميع، وتعلق بهم الحكم صوما وإفطارا، ولا عبرة بما هو شائع من اختلاف بين تلك الأقطار، فالإعلان عن رمضان يكون من طرف القاضي الشرعي بشرط أن لا يكون القاضي نفسه مسلوب الحرية والعدالة[6].

لقد شكل توحيد يوم الصيام والإفطار هاجسا قويا لدى مسيري شُعب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تلك الفترة، لأنهم قد أدركوا مجهودات الاستعمار في تشتيت رأي الأمة وتفريق شملهم، ولذا دعا أحد أعضاء فرع الجمعية بتبسة بتاريخ 12 ماي 1952 كل القائمين على مدارسها ورؤساء شُعبها وكل العدول من الأمة الجزائرية أن يترقبوا هلال رمضان، ووضعت تحت تصرفهم ثلاث مكاتب

رئيسية في وهران والعاصمة وقسنطينة،وأعطى توضيحات في هذا الصدد بخصوص الكيفية التي يتم بها الصيام فقال: «فإذا كانت الرؤية في الجزائر فإنها تجري بما تقتضيه هذه المناسبات من إجراءات، وإذا كانت الرؤية من خارج الوطن فوجب الصوم على صوم القطر الإسلامي الذي له قضاة شرعيون معينون من طرف السلطة الشرعية كمصر وتونس والمغرب، فإن اتفقوا على رؤية واحدة وجب علينا الصوم، وإن اختلفوا فنحن مع الأغلبية لا مع الواحد منهم، وإن لم يتفقوا تبعنا أقرب القضاة إلينا وهو قاضي تونس»[7].

2-1- خصوصية الشهر الفضيل وطابعه الاجتماعي: يختلف شهر رمضان عن بقية المناسبات الدينية الأخرى لمكانته الاجتماعية وفضائله بين المسلمين ويقوم القائم على الشؤون الدينية بإبلاغ السلطات الإدارية الاستعمارية ببدء شهر رمضان المبارك حتى تسمح بتعيين أحد الجنود الفرنسيين بمراقبة عملية ضرب المدفع لشهر رمضان[8]، كما تعد هذه المناسبات فرصة لتهذيب النشء بإحياء الحفلات الترفيهية، وكانت شُعب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحرص على هذا، فقد قامت جمعية الشبيبة الإسلامية بتنظيم ثلاث حفلات بتاريخ 27 ديسمبر 1935م،اثنان منها تم تخصيصهما للنساء بإشراف معلمات الجمعية، وخاطبهم الطيب العقبي بهذه المناسبة وكانت قاعة لالير(lalir) بالعاصمة مقرا لهذا الاحتفال، أما الحفلة الثالثة فخصصت للرجال بالمسرح البلدي حضرها جمع غفير من رجال الإصلاح، وألقى فيها رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محاضرة حثّ من خلالها الشباب الجزائري على التمسك بمقومات الهوية الوطنية والدين الإسلامي، وإحياء اللغة العربية، وتبعه الطيب العقبي بمداخلة أكد فيها واجبات المسلم نحو دينه ووطنه، وشارك بهذه المناسبة أحمد توفيق المدني وألقى كلمة بالمناسبة، كما ساهم أيضا محمد العيد آل خليفة بقصيدة شعرية تصب في نفس النهج، وانتقل هذا الاحتفال لنادي الترقي في اليوم الثاني وشارك الحضور بعض الأطفال بإحياء مسرحية تاريخية، وختم بآيات من القرآن الكريم[9].

الملاحظ على هذه الاحتفالات بنظامها الإصلاحي أنها أداة تعارف وتواصل وربط ما لم تتهيأ لهم أسباب الاجتماع إلا فيها، فهي تشكل منبر للخطب وفائدتها الايجابية تكمن في تلاقح الأفكار وإيقاظ الهمم ورفع درجة التفكير من المستوى العامي إلى خطاب النخب، كما يتسنى لمجموعة من الشباب التمرس على استعراض الآراء واستجماع القدرة على الإقناع وزوال الدهشة من لقاء الناس، أن هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية للذين حرموا من التعليم في المدارس النظامية، فقد تتفاوت قيمتها بتفاوت سمو المعاني التي قامت لأجلها فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، فأسمى هذه الأسباب ما يذكر الشعب الجزائري بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية[10]، وتميزت مدرسة السعادة بحي بلكور وغيرها من المدارس الإصلاحية بإحياء ليالي رمضان[11]، وترتكز الاحتفالات بكامل المناطق الجزائرية في العشرة الأواخر من الشهر، لأجل خلق جو تسوده القيم الدينية عكس ما أرادت فرنسا، وما تحرص عليه الجمعية في هذه الاحتفالات هو الفصل بين الرجال والنساء[12].

في الحقيقة لقد تعودت جمعية العلماء منذ نشأتها على سُنة حميدة جعلتها من صميم أعمالها، وهي تكثيف المجهود الإصلاحي في شهر الصيام بنشاطها في مجامع المسلمين ومدارسهم ونواديهم بل وفي ديارهم،لأن الأماكن الوقفية كانت تهيمن عليها الإدارة الاستعمارية، فقد ألزمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المعلمين المقيمين في مراكزها التعليمية أن يقوموا بدورهم في إطار محاربة البدع والآفات الاجتماعية، ووزعت عليهم منشور في هذا الصدد هذا نصه «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد

فإن أشرف عمل تتقربون به إلى الله وتخدمون به دينكم وأمتكم في هذا الشهر المبارك هو إحياء لياليه بدروس الوعظ والإرشاد وتذكير إخوانكم المسلمين بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وإن جمعية العلماء تعلم أنكم قائمون بهذا الواجب في بلدانكم ولكنها تذكركم وتوصيكم بأن لا تفرطوا فيه ليلة واحدة من ليالي هذا الشهر، وأن تخصوا بالعناية المواضيع الراجعة إلى إصلاح الأخلاق، فمن فساد الأخلاق أتيت أمتكم ومن ثغور الأخلاق دخل شياطين الإنس والجن إلى نفوسها فأفسدوها »[13].

لقد تحملت النخبة الإصلاحية مسؤولية إصلاح ما أفسدته السياسة الاستعمارية لأن هذه الأخيرة قد ركزت منذ البداية على أحكام السيطرة وتسيير هذه المناسبات، وفي هذا الصدد وصف الرحالة فاغنر (Fagner) شهر رمضان فيقول «إن الإعلان عن بدء شهر الصيام يتم بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير أقيم في الميناء، وليست هذه الطلقات إحسانا من جانب الحكومة الفرنسية، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين أن يدفعوا خمسة فرنكات لكل طلقة، في مقابل هذه التحية، وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد تضيء الهلال الذي يتوج رؤوسها، ويقف المؤذن وسط أضواء المصابيح ويرفع العلم الأبيض ثم يدعو المؤمنين إلى الصلاة »[14].

كما أن ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر لها طابع اجتماعي خاص، فتعم الاحتفالات بالمساجد التي يختم فيها القرآن الكريم من بعض طلابها وتنشط بها النوادي والجمعيات لجمع التبرعات لصالح الفقراء، وتكون هناك حملات تحسيسية للحث على فعل الخير والتكافل الاجتماعي، ويزداد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بانتشار خطبائها على كافة مناطق الوطن للوعظ والإرشاد، وتحفيز الناس على طلب العلم وإحياء اللغة العربية بإرسال أبنائهم للمدارس الخاصة التي أنشأتها ، وتكون خاتمة هذه الاحتفالات أناشيد وطنية تزيد من تجذر حب الوطن في نفوس الجزائريين، ويشارك في هذه الاحتفالات بعض النواب للعملات المحلية والمالية، لإضفاء الطابع الرسمي عليها، ويحضرها بعض الأعيان من مختلف الجهات لقداسة المناسبة[15].

في الحقيقة أن هذه الاحتفالات التي تخصص في العشر الأواخر من رمضان هي من العادات التي لم يستنكرها العلماء وتعود الشعب الجزائري على إحيائها وتقام في المساجد بعد صلاة العشاء والتراويح، ولهذا كانت عدة نوادي وجمعيات تحرص عليها خاصة في ليلة السابع والعشرين من كل رمضان،فكانت سنة 1936حافلة بها للتأكيد على قداسة المناسبة ،فقد أحياها نادي النجاح بسيدي بلعباس وشعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجمعية شبان الآداب المسلمين والجمعية الدينية الإسلامية، والملاحظ عليها أنها ذات طابع ديني وكانت حافلة بالحضور وصبت أهدافها الإصلاحية في معالجة بعض المظاهر الاجتماعية والعادات والتقاليد البالية[16].

كما أن الليالي العشر الأواخر من رمضان تسودها بعض الاعتقادات في أوساط المجتمع الجزائري، فهناك من عوام الناس من يفرقون بين ليلة القدر والليلة المباركة التي ذكرها القرآن، ويعتقدون أن هذه الأخير تكون في منتصف شعبان، وتقسم فيها الأرزاق على الخلق، وسادت في ليلة القدر خرافات كان سببها الجهل، وورد في إحداها أن هناك عائلات غنية قد أدرك أحد أفرادها هذه الليلة وسأل الله أن يجعل نسله وماله خيرا من نسل ومال الناس، والشرع يؤكد على أن طلب الدنيا يكون بأسبابها المشروعة، ومن بين المعتقدات البالية أيضا، فهناك من كان يؤمن بأن ليلة القدر تنشق فيها السماء وتظهر فيها ألوان من نور وكل واحد منها منفردا عن الآخر، وهذه الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة مردها إلى السياسة

الاستعمارية ، لأن هذه الليلة من أفضل الأوقات للعبادة فغمرها المستعمر بالخرافات لصرف الناس عن فضائلها[17].

فعلى الرغم من الفقر والفاقة التي كان المجتمع الجزائري يعيش فيها الا أنه قد حافظ على الاحتفالات بالمواسم الدينية ولم تخلو بيت من بيوت الجزائريين من هذه الاحتفالات [18]، وبإعلان العيد يحتفل الجزائريين كغيرهم من الأمة الإسلامية وتتزين له المدن والأحياء، ويلبس فيه الأولاد ألبسة جديدة وتضبط فيه مظاهر الاحتفال، وتكثر به الأعمال الخيرية وتزين فيه الموائد بمختلف الحلويات التقليدية الخاصة بكل منطقة، وتفتح فيه المدارس التعليمية لأداء الخطب، هذا بالإضافة إلى نشاط المساجد في الجانب الاجتماعي والديني [19].

رغم مظاهر الاحتفال البادية في أوساط المجتمع والمجهودات المبذولة من طرف النخبة الجزائرية وصحافتها الإصلاحية، في الحفاظ على هذا الطابع الاحتفالي الديني والاجتماعي، فقد أحدثت السياسة الاستعمارية في الجزائر بعض التحولات، فعم الجهل وتأثر بعض الشباب بالمدنية الغربية وطغت على بعض الزوايا مظاهر الدروشة والعادات البالية وهناك من الشباب من يجعل يوم العيد مناسبة ليقضيها في الحانات، ورغم كل هذه الظروف الصعبة فان الاحتفالات بيوم العيد ظلت ذات مكانة اجتماعية ودينية يهيـــئ الناس أنفسهم لإحيائها[20].

2- مجهودات الإدارة الاستعمارية في طمس معالم الشهر الفضيل

2-1 السياسة الاستعمارية اتجاه المناسبات والأعياد الدينية: لم تختلف أساليب تسيير شؤون الدين الإسلامي بالجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عما كانت عليه منذ سنة 1871، فقد حافظت على أوضاعها رغم الضغوطات الإدارية التي تعرضت لها، وتصاعدت حمى العداوة الصريحة ضد رجال الدين في أوساط الرأي العام الفرنسي، فحاولت الإدارة الاستعمارية تشكيل الاكليروس الإسلامي بتوظيف 149 إمام موالين للسياسة الفرنسية في الجزائر هذا مع مطلع القرن العشرين، لكن بالنظر للاعتمادات المالية المخصصة لشؤون الديانة الإسلامية في سنة 1907، قبيل تطبيق قانون الفصل بين الكنيسة والدولة والمقدرة بحوالي 356,900 فرنك مقابل 812,200 فرنك والتي كانت تدفع لشؤون الديانة الكاثوليكية، فإننا نلاحظ أن هذه القيمة لا تكفي لإقامة الشعائر الدينية للمسلمين أمام عدد السكان الذي ظل يتضاعف في كل مرة، مقارنة بعدد الأوروبيين الذين كانوا لا يشكلون إلا الجزء القليل من التركيبة السكانية في الجزائر[21].

رغم أن الحكومة الاستعمارية الفرنسية كانت تعلن أنها تلتزم الحياد في الشؤون الدينية وحرية المعتقد، فإنها كانت تبدي غير ما تعلن، وبالرجوع إلى سنة 1887 فان توزيع الميزانية على الأديان الثلاثة في الجزائر كانت بالشكل الآتي: الإسلام 216.340 فرنك، المسيحية 986.400 فرنك، اليهودية 26.600 فرنك، ويمكن مقارنة ذلك بعدد السكان عندئذ فالمسلمين كانوا ثلاثة ملايين، والمسيحيين 35 ألف، واليهود اقل من 36 ألف، ولا ننسى أن بعض الأموال المعطاة لغير الإسلام إنما هي من أوقاف المسلمين[22].

إن سر تسلط الاستعمار على الدين الإسلامي وتمسكه بالتحكم في تسييره ليس من حيث أنه دين يجب أن يحافظ عليه، بل كان يرى أنه جزء من العمل الاستعماري الذي يهدف إلى القضاء على كل ما له صلة بالأهالي، وإضعاف قوة تماسكهم المتمثلة في الدين الجامع، وغاية فرنسا من هذه الأساليب هي

تكوين إسلام جزائري مقطوع الصلة بماضي الإسلام الحقيقي، وتكوين مسلمين موالين لها وتشكل طائفة من رجال الدين يعينونها لبلوغ غايتها وهي زوال الدين الإسلامي والأمة الجزائرية[23].

بقدر ما عملت السلطات الاستعمارية على إضعاف الدين الإسلامي وتحطيم كيانه، جدت في تشجيع نشر الديانة المسيحية والحركات التبشيرية واستغلت صدور قانون 27 سبتمبر 1907 المستمد من الإجراءات القانونية التي اتخذت في فرنسا لسنة 1905 وفصل بموجبها الدين عن الدولة، وتم تخصيص لها ثلاث أرباع ما خصصته لشؤون الدين الإسلامي، في عام 1930 أنشأت الإدارة الاستعمارية بالجزائر لجانا استشارية لشعائر الدين الإسلامي في كل مقاطعة برئاسة شخص أوروبي وعضوية ممثل من الشرطة الاستعمارية، والملاحظ على هذه الإجراءات أنها كانت تهدف إلى إطلاق العنان للتبشير المسيحي في الجزائر[24].

في الواقع لقد كان القانون الخاص بفصل الدين على الدولة وإعطاء الناس حرياتهم كاملة في كل ما يتعلق بديانتهم أمر يعني المسلمين دون غيرهم، لأنهم هم الذين كانوا محرومين من تلك الحرية، لكن ما وقع بعد ذلك أن هذا القانون لم يطبق عليهم وخصص لغيرهم من الديانات الأخرى وبقيت الإدارة الاستعمارية في الجزائر تتصرف في المساجد وأوقافها وموظفيها وتقبض بيد من حديد على كل الوظائف والمناسبات والأعياد الدينية[25].

إن الأسماء التي فرضت في الوظائف القضائية والدينية من طرف الاستعمار ليست أعلام من المسلمين جاؤوا لخدمة الإسلام، إنما هم أعلام أجناس لمعانٍ استعمارية، والشعب الجزائري ظل يحارب الأفكار التي كانوا يمثلونها لأنهم رضوا أن يكونوا بوقا من أبواق الاستعمار، وفي ظل هذا الصراع رأت الحكومة الاستعمارية إلحاق الصوم والأعياد الدينية بالإدارة الاستعمارية[26].

بحلول سنة 1933 صدر قرار تأليف لجنة الأهلة للإشراف على مراقبة رؤية الهلال وتحديد الأعياد الدينية وتنظيم شؤون الحج، كان كل أعضائها من الموالين للإدارة الاستعمارية، هذا بالإضافة إلى تشديد الرقابة على الأئمة والمفتيين وإحكام السيطرة عليهم وعلى نشاطهم الديني والاجتماعي[27]، وتوغل رجال الكنيسة داخل المجتمع القبائلي، ونصبوا أنفسهم أوصياء عليه، وقاموا بفرض نظام قضائي وتعليمي على المنطقة مخالفا لما كان سائدا، ففتحوا بها الكنائس وفرضوا على أهلها النظام العرفي بدل الشريعة الإسلامية، واستعمال اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية في المحاكم، وألغوا نظام الجماعات التي كان الشعب القبائلي يحتكم إليها، وجعلوا الحكم الفرنسي مباشرا واتخذوا مختلف الإجراءات لتمييز أهل الزواوة عن بقية السكان، ولم تكن هذه السياسة خاصة بسكان القبائل بل أن الفرنسيين اتبعوها كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، مع كامل سكان المناطق الأخرى ولم تسلم جهة أو منطقة من عملية الطمس والتفرقة الاستعمارية[28].

كانت الإجراءات الاستثنائية التي طبقت على الجزائريين تهدف إلى زعزعة التماسك الشعبي والتفافه حول الدين الإسلامي، لأن هذا الأخير عقيدة وليدة الإيمان بالقضاء خيره وشره، ولم تقف أبدا في طريق مبدأه العلم ومنتهاه العمل الصالح، لكن التمدن الذي يدعو إليه الاستعمار، فجل ما كان يريد الوصول إليه هو ضرب مقومات الهوية الوطنية وتشتيت الشعب الجزائري، وتمرير مشاريعه الاستيطانية الرامية إلى تغليب العنصر الأوروبي على المحلي وزيادة عدد المستوطنين وتشجيع الفساد الأخلاقي والرذيلة والبدع، وإضعاف البنية الاجتماعية للشعب الجزائري[29].

لقد تأثر المجتمع الأهلي بالحياة الغربية في بعض جوانبها وأصبح بعض شبابنا لا يدرك الحكمة من الصيام رغم وضوحها، فهي قبل أن تكون عبادة فإنها عامل لتقوية العزيمة والإرادة وكبح النفس والشهوات، وضبط نزغ الشباب وتمهيدا لحسن التبصر، ورغم ذلك فقد كانت هناك تجاوزات، ولم يحي بعض الشباب الجزائري هذا الركن من الدين، وظل هؤلاء يملؤون المنتزهات والملاهي لأنهم لم يكونوا متشبعين بالعقيدة الصحيحة، وكانوا من ذوي الإرادة الضعيفة وغرتهم المدنية الغربية[30].

فهؤلاء الشباب قد جرتهم السياسة الاستعمارية لأن يسترسلوا في مجونهم وشهواتهم، فلا هم يتعلمون ليزاحموا بالعلم، ولا هم يحملون أفكارا وطنية للإسهام بها في رفع الغبن على أبناء جلدتهم، ولا هم محافظون على الدين قائمين بواجباته وحسبهم ترديد الشعارات، بالمقابل فإن الاستعمار يعمل على تعطيل الدين بإفساد الأخلاق ونشر الجهل بينهم[31]، لأن الدعوة للوحدة وجمع الشمل نابعة من صلب الدين فالجماعة تتقوى بالفرد وهو كذلك يتقوى بها، ومثلما نجد الاتحاد بين أفراد الشعب في كل ما يزيده قوة، نجده أيضا في صوم رمضان الذي هو أيضا من مظاهر الخصوصية الإسلامية[32].

إن في الصيام ثورة على هواجس الشهوات وملذات الدنيا التي تجري من الإنسان مجرى الدم، فهي ثورة على الحيرة والشك والجهل وكل الأنظمة الاستعمارية البالية التي قامت على عبادة المال والخضوع للشهوات، وأمام هذه المغالطات الغربية التي كانت تدعو لإطلاق الحريات الفردية ضاعفت الأمة الجزائرية مجهوداتها الإصلاحية، في إنماء عاطفة الدين ومقومات الهوية الوطنية، لأن بعض شبابنا تأثر بالثقافة الأوروبية مما عاد بالأثر السيئ على حياتهم الروحية، وشهر الصيام فرصة للمجتمع الجزائري في تلك الفترة لتنشيط وتفعيل دروس الوعظ والإرشاد وزيادة التكافل الاجتماعي، وربط أواصر التراحم والمودة بين فئات المجتمع[33].

إن تعاليم الدين الإسلامي قد ساهمت بشكل فعال في التخفيف من الحالة المزرية التي كان الشعب الجزائري يعيشها ، فحاربت الأمراض الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع، لأن الاستعمار قد ضرب طوق على المساجد والمدارس القرآنية وشجع الزوايا المنحرفة، وأرغم الأصيلة منها على السكوت، وترك الشعب يعيش في حالة من البؤس والفقر والجهل، فكانت الزكاة كنظام اقتصادي تدفع للحد من هذه الظاهرة، والصيام كأسلوب وعبادة يساهم في تعويد النفس على الصبر وجعل الفرد الجزائري يتمسك بالمثل العليا طبعا لا تكلفا، وهذه العبادات الغاية منها تحقيق الوحدة الاجتماعية وزيادة الوازع الديني[34].

2-2- لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية الكبيرة: لم يستسغ الاستعمار نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكعادته لا يفوت فرصة ولا مناسبة إلا استغلها وطمس معالم خصوصيتها الدينية لتصبح مجرد إجراء يخضع للقوانين الاستعمارية، فأوعز هذا الأخير لبعض القضاة لتشكيل لجنة أطلق عليها «لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية الكبيرة»، وبرر القائمين على هذا العمل من الموالين للاستعمار أنه موروث ثقافي، ومن تراتيب بعض الحكومات الإسلامية القديمة التي كانت تنصب قاضي خاص بالأهلة، لكن هذا السند انقطع وأن مفهوم قاضي للأهلة غير مفهوم رئيس الأهلة والأعياد الإسلامية[35].

كما ذكر قاضي حكومي بجريدة الوزير الموالية للاستعمار بتاريخ 01 أوت 1946، أن لجنة الأهلة والمواسم الإسلامية في جميع أقطار الأمة هي من خطط القاضي المالكي، والملاحظ على هذا الكلام أنه صحيح إذا كان هذا الأخير يتمتع بالحرية في أداء مهمته العدلية، ويجمع في يده إ قامة الحدود الشرعية ودرء المظالم، لكن هذا المنصب في ظل الجزائر المستعمرة ليس كذلك بل القاضي يسير وفق ما سطره له الاستعمار، ولم يبق له من صلاحيات سوى ما تعلق بأحكام النكاح والمواريث وأموال المحاجر، وفي

نهاية الأمر تخضع كل تلك الأحكام التي يصدرها إلى سلطة القاضي الفرنسي، وفيما يتعلق برؤية الهلال الخاص بالصيام والإفطار، فقد ذكر القاضي الحكومي أن إقرار الرؤية يخضع للشهادة والأصل أنه قد أخلط بين الخبر والشهادة، لأن رؤية الهلال هي من باب الخبر وليست من باب الشهادة، وكل من سمع الخبر تعلق به حكم وجوب الصيام، وأن الهدف من وراء إنشاء هذه الهيئة هو زرع التفرقة بين الناس، فقد كتبت جريدة صدى قسنطينة الموالية للاستعمار خبرين متناقضين بنفس السنة ، أحدهما أن قاضي قسنطينة أثبت الصوم والثاني أن قاضي الجزائر قال عكس ذلك، هذا بالإضافة إلى إقصاء العمل الإصلاحي في الاهتمام بالمسائل الدينية[36].

هذه السياسة ليست وليدة تلك المرحلة الظرفية بل كانت ضمن الأهداف المسطرة من طرف الإدارة الاستعمارية، فبالرجوع إلى سنة 1917 فقد فصل الحاكم العام لوتو (Loto) الهيئة الدينية المسلمة عن الدولة، وكتب رسالة إلى وزير الداخلية الفرنسي يذكره فيها قائلا «يجب أن تصب جميع جهودنا على تحريرهم من القرآن بدل ربطهم به ...، هذه هي السياسة الإسلامية التي يجب أن ننتجها»[37].

إن عمل هذه اللجنة الدينية الحكومية يدخل في تحويل وجهة الدين وتجريده من معانيه السامية وطمس معالم قومية الفرد الجزائري، التي تعد من أبرز الركائز الاجتماعية، ومن أهم مقومات التكافل بين طبقات المجتمع، ولهذا فإن الاستعمار قد أدرك سر تماسك المجتمع الجزائري وزرع الشك في أبسط الأمور التي تتعلق بالدين، وأصبح في القرية الواحدة عدة فرق متنافرة، وبذلك ضرب الوحدة الوطنية، ويعود سبب هذا البلاء إلى فقدان الأمة الجزائرية للمرجعية الدينية، التي تجمع الأمة على وحدة الصف والتماسك الاجتماعي[38].

لقد اعتمدت لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية على مرصد بوزريعة الحكومي، لكن الشعب الجزائري لم يكن يثق في ذلك المركز لأنه أعد خصيصا لتفريق الشعب وتشتيته، فالرصد علم لم يبلغ الجمود بالشعب الجزائري أن ينكره، لكن الاستعمار يفسد العلم بإفساد العلماء، ويعطل مصالح الجزائريين من خلال سن القوانين التي تقضي باعتبار الأعياد الإسلامية أعيادا تعطل فيها المصالح والأعمال، فالقصد من إنشاء مثل هذه المراكز هو العبث بالأعياد الإسلامية والتحكم في شعائرها، بواسطة لجان مثل لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية، وسبق أن كتب الشيخ أبو القاسم البيضاوي وهو أحد رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر مقالا في العدد الثامن عشر من جريدة البصائر، يكشف فيه تلاعب الإدارة الاستعمارية بمقومات الهوية الوطنية وثوابتها[39].

أما عن مساهمة هذا العلم في بقية الأقطار الإسلامية، فإن نتائجه كانت مرضية إلى حد بعيد، فقد عولت تركيا في إثبات دخول شهر رمضان على المرصد الفلكي، وصدرت فتوى من رئيس الشؤون الدينية بذلك، وأعلن بعض الأتراك الأغنياء من المحسنين في إحدى الصحف دعوى لمن أراد الإفطار في موائدهم من الفقراء كسابقة على زيادة التكافل الاجتماعي في هذا الشهر[40].

إن الاختلاف بين المسلمين في مواقيت الأعياد والمناسبات الدينية يساهم في الترويج للدعاية الاستعمارية، ويترك مجال لنشاط البعثات التبشيرية التي اعتبرت أن التقسيمات السياسية والجغرافية عامل مهم في بث التفرقة بين مختلف الشعوب العربية، ويساهم في إعطاء الفرصة لتدخل الإدارة الاستيطانية في فرض سياستها التنصيرية، وتحديد مواقيت المناسبات والأعياد الدينية الإسلامية، مثلما فعل الحاكم العام مارسيل ادمونو دنايجلان (Marcel Edmonod Naegelen)، وهذا وفق ما تقتضيه

المصلحة الاستعمارية، والأصل أن مثل هذه المناسبات تخضع لضوابط شرعية تترتب عنها تحديد أيام تدخل في إقامة الشعائر الإسلامية منها يوم عرفة وغيرها من الأيام التي تختص بها الأمة الإسلامية[41].

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نستخلص عدة نتائج نوجزها فيما يلي:

- الأعياد والشعائر الدينية الإسلامية قد أضفت الطابع الشمولي والبعد المغاربي في ظل السياسة الاستعمارية وبذلك تكون قد حافظت على مقومات الهوية الوطنية.

- شكلت مجهودات الصحف الإصلاحية دورا بارزا في بعث القيم الدينية ودحض الدعاية الاستعمارية التي كانت تسعى لإطلاق الحريات الفردية داخل المجتمع الجزائري بدعوى نشر الحضارة الغربية ومحاربة التعصب الديني.

- كانت الشعائر والأعياد الدينية فرصة لتكثيف التظاهرات الثقافية والعلمية من خلال تفعيل عمل النوادي والجمعيات والمدارس الإصلاحية في ظل القوانين الاستثنائية التي هيمنت على أملاك الأوقاف وسعت إلى تفتيت الروابط الاجتماعية وتماسك المجتمع الجزائري.

- استغلال مناسبة شهر رمضان في تكثيف دروس الوعظ والإرشاد ومحاربة البدع والخرافات والتصدي للمشروع التنصيري، الذي سعت فرنسا لنشره في ظل الظروف المعيشية المزرية جراء السياسة الاستعمارية التي انتهجتها في الجزائر.

- الطابع الوحدوي الذي اتسم به شهر رمضان من خلال توحيد يوم الصيام والإفطار، رغم الدعاية الفرنسية التي أرادت أن تجعل من هذه المناسبة منبر لبث التفرقة، واعتبار الشعب الجزائري أقليات عرقية بالتركيز على التباين في يوم الصيام والأعياد الدينية.

- إن الأعياد الدينية وشعيرة الصيام ظلت الهاجس الذي يعمل الاستعمار على التخلص منه لفاعليته في تكافل المجتمع الجزائري وزيادة التمسك بخصوصيات العقيدة الإسلامية.

- الصيام من المناسبات الدينية الإسلامية التي تزيد من صلات الترابط بين الأقطار العربية والإسلامية وتكون المساجد والزوايا فيها عامرة، وهذا ما يشكل لحمة اجتماعية ووسيلة للدعاية والإرشاد ومحاربة الآفات التي تفشت في المجتمع.

الهوامش:

1- (صاحب المقال دون توقيع)، «الاعتناء بالهلال»، جريدة الصراط السوي، العدد 15، قسنطينة الاثنين 08 رمضان 1352هـ الموافق لـ 25 ديسمبر 1933، ص 06.

2- عبد الحميد بن باديس، «العناية بهلال رمضان»، جريدة البصائر، المجلد الأول، العدد 2، الجمعة 25 شوال 1354 هـ الموافق لـ 01 جانفي 1936م، ص 7.

3- محمد الرزقي الشرفاوي الأزهري، «إثبات هلال رمضان»، جريدة البصائر، المجلد الأول، العدد 40، الجمعة 07 شعبان 1355 هـ الموافق لـ 23 أكتوبر 1936م، ص ص 06- 07.

4- المولود بن الصديق الحافظي الأزهري،«انتظروا هلال شعبان»، جريد الشهاب،المجلد الثالث، العدد131، الخميس 26رجب 1346ه الموافق19 جانفي 1928، ص ص 619-620.

5- (صاحب المقال دون توقيع)، «انتظروا هلال رمضان بالأقطار الثلاثة تونس الجزائر مراكش»، جريد الشهاب، المجلد الثالث، العدد 135، الخميس 24 شعبان 1346ه الموافق16 فيفري 1928، ص ص 712-713.

6- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2015، ص405.

7- العربي بن بلقاسم التبسي، «ثبوت شهر رمضان»، جريدة البصائر، العدد 190، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، الاثنين 24 شعبان 1371 هـ الموافق لـ 19 ماي 1952 م،ص 77.

8- محمد البشير الإبراهيمي، «وحدة الصوم والإفطار»، جريدة البصائر،العدد84، السنة الثانية من السلسلة الثانية، الاثنين 24شعبان 1368، الموافق لـ 30جوان 1949، ص ص305- 306.
9- محمد البشير الإبراهيمي، «لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية»، جريدة البصائر، العدد 45، السنة الثانية من السلسلة الثانية، الاثنين 27 رمضان 1367 هـ الموافق لـ 02 أوت 1948، ص ص 353– 354.
10- شارل روبير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، دار منشورات عويدات، بيروت ،1982، ط1، 1982، ص 287 .
11- محمد البشير الإبراهيمي، «هلال رمضان»، جريدة البصائر، العدد 162، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، الاثنين 28 رمضان 1370 هـ الموافق لـ 02 جويلية 1951 م، ص 209.
12- أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، المصدر السابق، ص ص 226 – 227.
13- (صاحب المقال دون توقيع)، «رمضان في تركيا»، جريدة الشهاب، المجلد الأول، العدد 22، الخميس 02 شوال 1344 هـ الموافق لـ 15 أفريل 1926 م، ص 430.
14- أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، المصدر السابق، صص 405-406.
15- أبوا القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، المرجع السابق، ص ص 587 – 588.
16- الطيب العقبي، «الإسلام والتمدن العصري»، جريدة السنة النبوية المحمدية، العدد1، الإثنين 08 ذي الحجة 1351هـ/الموافق لـ 03 أفريل 1933م، ص04.
17- المحامي شكري أباضة، «رمضان»، جريدة الشهاب، المجلد1، العدد21، الخميس 25 رمضان 1344هـ/ 08 أفريل 1926، ص ص 414-415.
18- مولود عويمر، تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية، ج1، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2011،، ص ص 70-73.
19- باعزيز بن عمر، «طابع رمضان الاجتماعي»، جريدة البصائر، العدد85، السنة الثانية من السلسلة الثانية، الاثنين 08 رمضان 1368هـ/ الموافق لـ 04 جويلية 1949م، ص314.
20- (صاحب المقال دون توقيع)، «الصيام في نظر العلم»، جريدة البصائر، المجلد4، العدد141، الجمعة 03 شوال 1357هـ/ الموافق لـ 25 نوفمبر 1938م، ص10.
21- بن الشيخ حكيم، مدينة الجزائر الأوضاع الاجتماعية والانثروبولوجية 1945- 1954، دار هومة، الجزائر، 2013، ص ص171- 172.
22- (صاحب المقال دون توقيع)، «حفلات مدرسة الشبيبة الإسلامية بمناسبة رمضان»، جريدة البصائر، المجلد3، العدد 93، قسنطينة 28 شوال 1356هـ/ الموافق لـ 31 ديسمبر 1937م، ص04.
23- احمد طالب الإبراهيمي، ج1، المصدر السابق، ص328.
24- (صاحب المقال دون توقيع)، «ماذا في هذا الشهر المعظم بالعاصمة»، المصدر السابق، ص ص04-05.
25- (صاحب المقال دون توقيع)، «حفلات مدرسة الشبيبة الإسلامية بمناسبة رمضان»، المصدر السابق، ص04.
26- أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، المصدر السابق، ص ص 293- 294.
27- بن الشيخ حكيم، المرجع السابق، ص173.
28- مولد عويمر، المرجع السابق، ص ص 370-372 .
29- مصطفى بن حلوش، «ليلة 27 رمضان»، مجلة الشهاب، المجلد11، العدد11، قسنطينة ذي القعدة 1354 الموافق فيفري 1936 م، ص ص 705- 706.
30- (صاحب المقال دون توقيع)، «آثار وأخبار»، جريدة الصراط السوي، العدد 14، الاثنين 22 رمضان 1352هـ/ الموافق لـ 08 جانفي 1934، ص ص 1-2 .
31-كمال كاتب، أوروبيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، ترجمة رمضان زيدي، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 122.
32- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية ال جزائرية1830- 1954، دار البصائر، الجزائر، 2009،ص 66.
33- عبد الحفيظ الجنان، «حفلة تدشين مدرسة حياة الشباب بميلة»، جريدة البصائر، المجلد3، العدد 94، 05 ذي القعدة 1356هـ/ الموافق لـ 07 جانفي 1938م، ص04.

34- بلكعلول عبد الله بن موسى، «العـــيد»، مجلة الشهاب، المجلد 13، العدد12، الجمعة 16محرم 1357 هـ الموافق 18 مارس 1938 م،ص ص574- 575 .
35- شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ترجمة حاج مسعود وآخرون، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر،2007، ص ص 469-470.
36- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص354.
37- أحمد طالب الإبراهيمي، ج3، المصدر السابق،ص ص120-122.
38- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ص 86-87.
39- الشيخ محمد خير الدين، مذكرات محمد خير الدين، ج1، مؤسسة الضحى، الجزائر، ط2، 2002، ص112.
40- احمد طالب الإبراهيمي، ج3، المصدر السابق، ص ص 113-114.
41- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص87.